

II-الموريسكيون الأندلسيون في تونس دراسة وببليوغرافيا

نشر ميدياكوم، تونس 1998.

156ص، وملحق صور بالألوان.

تأليف : أ. أحمد الحمروني.

تقديم : د. عبد الجليل التميمي.

لقد ساهم الموريسكيون الأندلسيون في إضفاء طابعهم المتميز على مختلف مراحل التاريخ التونسي الحديث بما منحوه من دفع لمختلف الأنشطة الاقتصادية بالإيالة في القرن السابع عشر وما قاموا به من تشكيل للفضائين الريفي والحضري معا. ولعل أكبر شاهد على ذلك تلك المجموعة الهامة من القرى التي تنتسب إليهم والتي تتميز بطابع عمراني فريد ويحيط بها مشهد فلاحى خاص. وهي في مجملها تشكل شاهدا على حيويتهم وذكائهم وإسهامهم في مجالات عديدة ومتنوعة. وهذا ما حاول الأستاذ أحمد الحمروني رصده وإبرازه في هذا الكتاب، موقرا بذلك للجمهور العريض عملا تأليفيا مونوغرافيا حول مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والذهنية والدينية للموريسكين الأندلسيين بتونس. على أن ما يضيف على كتابه أهمية خاصة -فضلا عن الملحق- تلك الببليوغرافيا التي صاحبت هذا التأليف المفيد. إن عمل الباحث أحمد الحمروني هذا -إلى جانب كتابه السابق حول تاريخ مدينة تستور الأندلسية [ميدياكوم، تونس 1994] - يندرج تماما في السعي إلى تأطير التاريخ الموريسكي وتقريبه من القاعدة العريضة، من التونسيين والمغاربة. فلا شك أنهم سيجدون في هذا التأليف رصيда مفيدا من المعلومات الموثقة".

أشار المؤلف في التمهيد إلى تطوّر الاهتمام "بالأندلسيات" في تونس من الدراسات التاريخية العامة إلى المونوغرافيات المستتقة لوثائق جديدة والفاحة

لمجالات بكر بفضل جهود أسماء ومؤسّسات. وقسّم كتابه إلى أربعة أقسام وملحق خاص بأندلسي القرن التاسع عشر . إلى جانب البيبليوغرافيا بمقدّماتها وفهارسها الثلاثة وتشمل مائتين وعشرين عنوانا بلغات مختلفة.

في قسم الأول (الموريسكيون في إسبانيا) درس المؤلف الصراع بين المسيحيين والمسلمين من خلال المواجهة الإسبانية المتمثلة في مقاومة شعائر الإسلام ومطاردة المسلمين وتحريم الألقاب العربية وتعميم الألقاب المسيحية ومنع الختان وسلب الأموال والأماك، وما قابل ذلك من مقاومة موريسكية متمثلة في تناوب الأدوار بين الفقهاء والأولياء المتبئّنين والمرأة التي حافظت على تقاليد العائلة العربية الإسلامية ووظفت السحر والشعوذة في مواجهة أعوان محاكم دواوين التفتيش، مثلما وظّف العلماء الرحلات لنقل الكتب الممنوعة والتطويع للتعليم الخفيّ ممّا أدّى إلى فشل التنصير وعقم تعليم المسيحية. وختم هذا القسم بعلاقة الموريسكيين بالأترك أمّهم الأخير.

وفي القسم الثاني (الهجرة الأندلسية) درس المؤلف ظروف الهجرة وتتبّع الجماعات الأندلسية المنتشرة في العالم وخاصة القاصدة البلدان المغاربية. بينما اهتمّ في القسم الثالث (الأندلسيون في تونس) بعدد المهاجرين المختلف في تقديره وبتاريخ أهم المدن الأندلسية في سهول مجردة وجهتي بنزرت والوطن القبلي، وخصّ العائلات الأندلسية بجملة من الملاحظات المستنتجة من دراسة جدول 550 عائلة مبينًا لأصلها معنى وموطنًا في إسبانيا وتونس. وهذا من أهم مواد الكتاب رغم صعوبة معرفة أصل بعض الألقاب. وفي نفس القسم درس المؤلف حياة الأندلسيين الدينية وعلاقتهم بالسلطة وتشبّثهم بأملاتهم وتميّزهم بنوع من التعصّب في تعاليمهم عن أبناء البلاد وتنظيمهم الداخلي بما يشبه الحكم الذاتي.

أمّا في القسم الرابع (التأثير الأندلسي) فقد استعرض المؤلف مجالات ذلك التأثير وخصوصياته من خلال مظاهر التمدّن عقليّة وسلوكا ودراسة مقارنة، للحلي واللباس والأكلات وتقدير الإسهام الأندلسي في الفلاحة وخاصة السقوية المستغلّة للناعورة ، والصناعة خاصة الشاشية، والتجارة خاصة تجارة العبيد أسرى القرصنة، والتعمير من حيث مواد البناء والأشكال المعمارية وأهم المعالم

وأشهر المهندسين دون نسيان المجال الثقافي والتعريف فيه بالمؤلفين ومؤلفاتهم محتوى ولغة. وإن كان ذلك أقلّ شأنًا من هجرة العلماء في العهد الحفصي.

وختم الأستاذ الحمروني كتابه قائلا: "مثلت الهجرة الأندلسية الأخيرة أهم حدث شهده مطلع القرن السابع عشر في العالم المتوسطي بانعكاساته المختلفة على موازين القوى بين إسبانيا وتركيا وبين الإسلام والمسيحية وعلى البلدان المستقطبة للمهاجرين، باعتباره النهاية الحتمية والمؤلمة لمأساة تواصلت أكثر من قرن منذ سقوط غرناطة. وهدفت إلى استئصال المسلمين من أوروبا المسيحية والقضاء نهائيا على الحضور العربي في إسبانيا المسترجعة، بصورة ترسم مصير الأقليات العرقية والدينية في العالم المعاصر. وكانت الهجرة إلى تونس، بحكم سياسة الاستقلال والتوطين، رافدا حضاريا هاما و متميزا كما وكيفا، مساهما في تقدم البلاد في شتى المجالات، إن الاندماج التدريجي للأندلسيين وأحفادهم، من تاريخ هجرتهم إلى اليوم، أصبح يهدد الطابع الأندلسي بالتلاشي إذا لم يتداركه الوعي بقيمة المحافظة عليه كتراث وطني مجسم للهوية المتفتحة والعمل على إحيائه وتوظيفه".

لطالما انتظرنا هذا الكتاب التأليفي الأول في موضوعه، بعد صدور عدة فصول مفردة أو مجموعة - كتبها ونشرها كل من دي بالثا وزبيس، والتميمي في منشوراته - لينتكمل مع أطروحة محمد رزوق حول الأندلسيين وهجراتهم إلى المغرب وكتابات سعيدوني عن هؤلاء في الجزائر لتتضح صورة ضحايا التعصب، المضطهدين في هويتهم ، الفارين بدينهم في المغرب العربي والعالم الإسلامي، وفي أرض الله.